

الدرس الثاني والعشرون

حاجة البشر الى الوحي والنبوة

- ضرورة بعثة الانبياء.
- قصور المعرفة البشرية.
- فوائد بعثة الانبياء.

ضرورة بعثة الأنبياء

وهذه المسألة التي هي من أهم المسائل الأساسية لفصل النبوة، يمكن إثباتها ببرهان مؤلف من ثلاث مقدمات:

١ - إن الهدف من خلق الإنسان هو: السير في طريق تكامله من خلال ممارسة الأفعال الاختيارية من أجل التوصل إلى كماله النهائي، هذا الكمال الذي لا يتوصل إليه إلا باختياره وانتخابه.

وبتعمير آخر؛ إنما خُلِقَ الإنسان ليكون - بعبادته وإطاعته لله تعالى - مستعداً وأهلاً للحصول على الرحمة التي يُختصُ بها الأفراد المتكاملون، والإرادة الإلهية الحكيمية إنما تعلقت - أصلة وبصورة مباشرة - بكمال الإنسان وسعادته، ولكن بما أنَّ هذا الكمال والسعادة السامية لا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق ممارسة الأفعال الاختيارية، لذلك جعل مسار الحياة البشرية على مفترق طرقين واتجاهين، لتتوفر بذلك أجواء اختيار وانتخاب. وبالطبع، فإنَّ أحد الطريقين يؤدي نحو الشقاء والعذاب، لتعلق به الإرادة الإلهية بالتبع وبصورة غير مباشرة لا بالأصلحة.

وقد اتضحت هذه المقدمة عند البحث في الحكمة والعدل الإلهي^(١).

٢ - إن الاختيار الوعي والشعورى - إضافة إلى احتياجه للقدرة على ممارسة العمل، وتوفُّر الظروف والأجواء الخارجية لممارسة الأعمال المختلفة، وجود الميل والدافع الداخلي لها - يحتاج أيضاً إلى المعرفة الصحيحة حول الأعمال الحسنة والأعمال القبيحة، والطرق الصالحة وغير الصالحة، وإنما

(١) براجع الدرس الحادي عشر والدرس العشرون، في الجزء الأول من هذا الكتاب.

يمكّن الإنسان من اختيار طريق تكامله - بكل حرية ووعي - فيما لو كان يعرف الهدف، وطريق الوصول إليه، وكان عارفاً بكل العقبات والعرقلات والانحرافات والمزالق.

اذن، فمقتضى الحكمة الإلهية أن تُوفّر للبشر الوسائل والمستلزمات الضرورية للحصول على مثل هذه المعارف والمدركات، وإنما فسيكون حاله كذلك الشخص الذي يدعو ضيفاً إلى داره، ثم لا يدله على موضعه، ولا على الطريق المؤدي إليه، ومن البديهي أن مثل هذا العمل مخالف للحكمة، ومحظوظ لنقض الغرض.

وهذه المقدمة واضحة، لا تحتاج إلى توضيح وتوسيع أكثر.

٣ - إن معارف ومدركات البشر العادلة والمعارفة، التي يحصل عليها نتيجة التعاون بين الحس والعقل، وإن كان لها دورها الفاعل في توفير ما يحتاج إليه في حياته، ولكنها لا تكفي في التعرّف على طريق الكمال والسعادة الحقيقة، في جميع المجالات الفردية والاجتماعية والمادية والمعنوية والدينية والأخروية، وإذا لم يوجد طريق آخر لسد النقصان فلن يتحقق الهدف الإلهي من خلق الإنسان.

وباللحظة هذه المقدّمات الثلاث تتوصل إلى نتيجة مفادها: إن الحكمة الإلهية تقتضي وضع طريق آخر للبشر - غير الحس والعقل - من أجل التعرّف على مسار الكمال في كل المجالات، حتى يستطيع البشر الاستفادة منه (مباشرة أو بواسطة فرد أو أفراد آخرين).

وهذا الطريق هو الوحي^(١) الذي وضعه الله للأنبياء، ليستفيدوا به منه بصورة مباشرة، وليسفيد منه الآخرون عن طريق الأنبياء، ولি�تعلموا منه كل ما يحتاجون إليه، من أجل الوصول إلى السعادة والكمال النهائي.

(١) وهذا البرهان من مواضع استنتاج القضية العلية (ينبني) من القضية النظرية (يوجد)، وكذلك من مصاديق اثبات الضرورة بالقياس للمعلوم عن طريق ضرورة العلة، وكذلك من مواضع اجراء البراهين اللمية في الإلهيات.

ومن بين هذه المقدّمات، ربّما يحصل التردد والشكك في المقدمة الأخيرة، ومن هنا يلزم علينا توضيحة والتوضّع فيها أكثر، ليتوصلّ لنا - تماماً - قصور المعرفة البشرية عن تحديد مسير التكامل الشامل للإنسان، واحتياجه لطريق الوحي.

قصور المعرفة البشرية

من أجل معرفة الطريق الصحيح للحياة في كلّ أبعادها وجوانبها، لا بدّ من التعرّف على مبدأ وجود الإنسان ومصيره، وعلاقاته بسائر الموجودات، والروابط التي يمكن له إقامتها وعقدها مع بني نوّعه وسائر المخلوقات، وتأثير هذه الروابط وال العلاقات المختلفة في سعادته وشقائه. وكذلك عليه أن يحدّد نسب المنافع والمضار، ودرجات المصالح والمفاسد المختلفة ومقاديرها، والموازنة بينها، لتحقّق بذلك وظائف هذا العدد الكبير من البشر، والذي يتميّز بخصائص بدنية ونفسية متفاوتة ومتغيرة، وكلّ منهم يعيش ظروفاً طبيعية واجتماعية مختلفة، ولكن الإحاطة بكلّ هذه الأمور لا تيسّر، وليس لفرد أو لجماعة معينة فحسب، بل للآلاف من الجماعات المتخصصة، في مختلف العلوم المرتبطة بالإنسان... لا يمكنهم اكتشاف مثل هذه الدساتير والقواعد وبيانها على شكل قوانين وأحكام دقيقة ومضبوطة ومحددة، لتتكلّل بذلك توفير كلّ المصالح الفردية والاجتماعية، المادية والمعنوية، الدينية والأخروية، لكلّ البشر. وحينما يقع التزاحم والتضاد والتعارض بين أنواع المصالح والمفاسد - وكثيراً ما يحصل ذلك - يعيّن المصلحة الأهم بدقة، ويقدمها في المجال العملي.

إنّ ما يلاحظ من مسيرة التغييرات الحقوقية والقانونية عبر تاريخ الشر مؤشر على أنه لم يوجد حتى اليوم - بالرغم من كلّ البحوث والجهود التي بذلها الكثير من العلماء المتخصصين عبر آلاف السنين - نظام حقوقياً صحيحاً وكمالاً وشاملاً. والملاحظ - أيضاً - أنَّ المقتنين والمؤسسات الحقوقية في العالم، تتوصّل - دائماً - إلى نقاط الضعف في القوانين الوضعية، ولذلك

يحاولون إصلاحها أو تكميلها، بإلغاء مادة أو نسخها، أو إضافة مادة لها أو
الحاق ملاحظة بها.

ويجب علينا أن لا نغفل عن أنَّهم استفادوا كثيراً - في تقنيَّ هذه
القوانين وتدوينها - من الأنظمة الحقوقية الإلهيَّة، والشرع السماويَّة. وكذلك
ينبغي أن نعلم بأنَّ كلَّ جهود المفتيين والحقوقيين متوجَّهة لتوفير المصالح
الدينية والاجتماعية، دون الاهتمام بتوفير المصالح الأخرى وملاحظة مدى
علاقتها بالمصالح الدينية والماديه، وإذا ما أرادوا الاهتمام بهذا الجانب
- الذي يُعتبر أكثر الجوانب أهميَّة في هذا المجال - فإنَّهم لن يتمكَّنوا من
الوصول إلى نتائج يقينيَّة قاطعة، وذلك لأنَّ المصالح الماديه والدينية يمكن
التعرُّف عليها - إلى حدٍ ما - وتحديدُها، من خلال التجارب العملية. أمَّا
المصالح المعنويَّة والأخريَّة فإنَّها لا تقبل التجربة الحسيَّة، ولا يمكن تقويمها
بدقة، وحين تزاحم وتتعارض مع المصالح الماديه والدينية فلا يمكن التعرُّف
على معيار لقياس أهميَّة أحدهما.

ومن خلال ملاحظة الحال الراهنة التي تعيشها القوانين البشرية، يمكن
لنا تقويم العلم البشري عبرآلاف أو مئات الآلاف من السنين، لتوصل لهذه
النتيجة اليقينيَّة: إنَّ الإنسان البدائيًّا أكثر عجزاً من إنسان عصرنا في تحديد
الطريق الصحيح للحياة، وعلى فرض وصول إنسان عصرنا إلى نظام حقوقِيٌّ
صحيح، وكامل، وشامل، من خلال تجارب آلاف السنين، وعلى تقدير القول
بأنَّ هذا النظام يتکفل توفير السعادة الأبديَّة والأخريَّة، فإنَّ هذا السؤال يبقى
ملحاً: كيف يتلاءم إهمال الأجيال الكثيرة التي عاشت عبر التاريخ الطويل في
ظلم جهلها، مع الحكمة الإلهيَّة والهدف من خلقهم؟

والحاصل:

إنَّ الهدف من خلق الإنسان، من البداية حتى النهاية، إنَّما يقبل التحقق
في أرض الواقع، فيما لو وُجد طريق آخر - غير الحُسْن والعقل - لمعرفة حقائق
الحياة، والوظائف الفردية والاجتماعية، وليس هذا الطريق إلا الوحي .

وقد اتضح مما ذكرنا - أيضاً - أن مقتضى هذا البرهان، أن يكون الإنسان الأول نبياً، ليتعرف على الطريق الصحيح للحياة عن طريق الوحي، وليتتحقق في الهدف من الخلق، وليهتدى به الآخرون.

فوائد بعثة الأنبياء

لأنبياء الألهيَّين - إضافة إلى تعرِيف البشر وهدایتهم إلى الطريق الصحيح للتكامل الحقيقى للإنسان، وتلقى الوحي وإبلاغه للناس - فوائد وتأثيرات مهمَّة أخرى في مجال تكامل البشر، وأهمُّها ما يلى :

١ - إنَّ هناك الكثير من المعلومات، التي يمكن للعقل الإنساني إدراكتها، ولكن ربما يغفل عنها، إما لاحتياجها لزمان طويل، وتجارب كثيرة، وإما نتيجة اهتمام الأفراد وانهماكهم في الأمور الماديَّة، وإما لسيطرة الميل الحيوانيَّة عليهم، أو ربما تغيب عن الناس نتيجة للتربية المنحرفة، أو الإعلام السُّيِّء، إن مثل هذه المعلومات يبيَّنها الأنبياء للناس، ليحولوا دون نسيانها تماماً، من خلال تذكيرهم وتأكيدهم الدائم عليها، وليراجعوا السغالطات والتعليمات السيئة بتعليماتهم الصحيحة والمنظفَة.

ومن هنا يُعرف السبب في إطلاق صفتَي (المذكُور والتذير) على الأنبياء، وإطلاق أسماء (الذكر، والذكري، والتذكرة) على القرآن الكريم.

يقول الإمام أمير المؤمنين (ع) حين يستعرض الفوائد والحكم من بعثة الأنبياء :

«ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويدركُوهم منسيَّ نعمته، ويتحجّوا عليهم بالتبليغ».

٢ - من أهمَّ العوامل التي لها تأثيرها الفاعل في التربية، وفي رشد الإنسان وتكامله؛ وجود القدوة في العمل. وقد أثبتت أهمية ذلك في بحوث علم النفس، والأنبياء الإلهيُّون الذين يمثلون الإنسان الكامل، والذين نشأوا في ظلال التربية الإلهيَّة، يقُومون بذلك خير قيام، إنَّهم - بالإضافة إلى

التعليمات والمعلومات التي يزودون بها البشرية - يقومون بمهمة تربية الناس وتزكيتهم . ونحن نعلم أنَّ القرآن الكريم قد قرن بين التعليم والتزكية في الذكر، حتى أنه في بعض الآيات قَدَمَ (التزكية) على (التعليم).

٣ - ومن معطيات وفوائد وجود الأنبياء بين الناس؛ ممارسة القيادة والتوجيه في المجالات الاجتماعية والسياسية والقضائية، حينما تتوفر الظروف اللازمة لذلك . وبديهيُّ أنَّ القائد المعصوم من أعظم النعم الإلهيَّة للمجتمع، حيث تُحلُّ بواسطته الكثير من المعضلات والاضطرابات الاجتماعية، ويتم إنقاذ الأُمَّة من الاختلاف والتنازع والفوضى والانحراف، ليقودها باتجاه كمالها المنشود.

الأسئلة :

- ١ - ما هو الهدف من خلق الإنسان؟
- ٢ - هل تعلّقت الإرادة الإلهيَّة الحكيمَة بشقاء الإنسان وعدابه كما تعلّقت بسعادته ورحمته؟ أم هناك فرق بينهما؟
- ٣ - ما هي الأمور التي يحتاج إليها الإنسان في ممارسة اختياره وأنتخابه الوعي؟
- ٤ - لماذا لا يكفي العقل البشريُّ في توفير كلِّ المعرف اللازمَة؟
- ٥ - بين الدليل على ضرورة بعثة الأنبياء.
- ٦ - إذا كان يمكن للإنسان التعرُّف على طريق سعادته الدنيويَّة والآخرويَّة من خلال الاستفادة من تجاربه الطويلة، أفلًا يحتاج للوحي بعد ذلك؟ لماذا؟
- ٧ - هل يمكن إقامة الدليل العقليُّ على نبوة الإنسان الأوَّل؟ وكيف؟
- ٨ - بين سائر الفوائد من وجود الأنبياء.